محمد محمود بن التلاميذ التركزى الشنقيطى: علاقاته ورحلاته

أ- ماء العينين بن محمد الأمين
قسم اللغة العربية بكلية الآداب
جامعة انواكشوط

1- ابن التلاميذ فى تركيا وأوربا:

كان ابن التلاميذ كثير التنقل والرحال بين مصر والحجاز والشام وتركيا بحثا عن الكتب لمطالعتها ونسخها، وخلال ذلك تعرف على كثير من أهل العلم والمعرفة والجاه والسلطان فى هذه البلاد، فؤعجبوا به إعجابا غير عادى، واعتبروه معجزة زمانه وأحد علمائه الأفذاذ الذين قل أن جاد الزمان بمثلهم حتي أصبح مغروفا لدى بعض لأوربيّين والمستشرقين. وقد سمع الخليفة التركى، عبد الحميد الثانى، بفضله وطول باعه وسعة إحاطته بالعلوم، ولذا حين علم الخليفة بقدومه مرة إلى القسطنطينية بعد ذلك استدعاه، وأكرمه وعرف قدره[1].

ثم إن الخليفة كان مهتماً بالبحث عن الكتب العربية الموجودة فى فرنسا وبريطانيا والأندلس، فأشار عليه أحد رجاله بأنه لا يصلح لهذه المهمة غير صاحبنا، فأرسل إليه بأن يتهيأ للسفر إلى أوربا، فقبل الطلب بشروط، منها عزل ناظر وقف الشناقطة بالمدينة، وإعطاؤه طباخا ومؤذنا، وأن تكون له مكافأة عند

---

(1) مقلد (محمد يوسف): شعراء موريتانيا، نشر مكتبة الوحدة العربية، طبع دار العلم للملايين، الدار البيضاء - بيرو 1962م، ص: 56 وتيمور (أحمد): أعلام الفكر السياسى، نشر لجنة نشر المؤلفات التيمورية، ط1، القاهرة1287هـ 1967م، ص: 270.

رجوعه، وقد أشار إلى هذه الشروط فى ميمية التى نظمها لمؤتمر العلوم الشرقية بقوله[1]:

فكان من السلطان أمرك بعدما شرطت أمورا لم تصادف أولى عزم

ثم أوفده الخليفة سنة 1304هـ إلى باريس ولندن والأندلس للاطلاع على ما فى خزائنها من الكتب النادرة وتقييد أسماء ما لا يوجد منها فى مكتبات تركيا لتستنسخ فى باخرة خاصة، وقد أعطى مؤذنا وطباخا، وأرسل معه عالم تونسى. وكان ينزل أينما حلّ بدور السفارات العثمانية[2].

ويبدو أنه قصد الأندلس قبل غيرها، ثم توجه إلى باريس، وقد يكون مرّ فى طريقه إلى فرنسا بلندن، وإن لم أجد ما يدل على مروره بلندن، وليتنى وجدته لأعرف ما قد يفيد فى هذا الموضوع من أسلوبه فى التفاهم مع أهلها ومشاعره نحوهم وتأثير الغربة فيه هناك؛ فالظاهر أنه جاء إلى الأندلس، وأقام بها مدة زار خلالها مكتباتها الشهيرة، وسجل أسماء الكتب النادرة غير الموجودة بتركيا فى كتاب أملاه على صاحبه التونسى السابق الذى رافقه فى هذه الرحلة سماه «أشهر الكتب العربية الموجودة بخزائن مكاتب دولة أسبانيا»، والمكتبات التى سجل منها أسماء هذه الكتب هى مكتبات مدريد وإشبيلية والأسكوريال وغرناطة ودير شغر

---

(1) ابن التلاميذ: الحماسة، طبع مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1219، ج1، ص 6 - 17، وابن الأمين (أحمد) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط نشر مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء، ط3، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة) 1280هـ 1961م، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 531، وكحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين، نشر مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربى، بيروت 1376هـ/ 1957م، ج11، ص312، والزركلى (خير الدين): الأعلام، نشر دار العلم للملايين، مطبعة دار العلم للملايين، ط2، بيروت 1969م، ج7، ص:311، وسركيس (يوسف الياس) معجم المطبوعات العربية والمعربة، طبع مطبعة سركيس، القاهرة 1346هـ/ 1968م، 1149.

(2) تيمور (أحمد): المصدر السابق، ص: 370، ومجاهد (زكى صحد): الأعلام الشرقية، مطبعة دار الطباعة المصرية الحديثة، القاهرة 1269هـ/ 1950م، وج٢، ص: 174، والزركلى (خير الدين)، المصدر السابق، ج7، ص:211، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 531، ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: ٢٩٢.

الجبل[1]. ويظهر كذلك من بعض كلامه عن فرنسا أنه جاءها بعد أسبانيا، وقضى زمنا بباريس لم يجد خلاله ولا خلال زمن إقامته بلأندلس، فيما يبدون ما يرضيه وينسيه متاعب السفر والغربة، وجد قوما بالأندلس غير أهلها العرب المسلمين، لهم لغة غير لغته من المحتمل أنه كان لا يعرف منها شيئاً، ولهم دين وعادات تختلف اختلافا بينا عما ألفه فى المغرب والمشرق، ولذا ذكر حاله هذه وعكسها بالحجاز موطنه آنئذ فى قصيدة يبدو أنه كتبها فى باريس، يذكر فيها مع ذلك طول ليل باريس والأندلس، وهى[2]:

ما ليل صول ولا ليل التمام معا ... كليل باريس أو ليلى بأندلس
لم أدر أيهما أقوى محافظة ... على الظلام وحجب الصبح بالحرس
أهل سمعتم بليل لا صباح له ... أم بالنهار البهيم الدائم الدنس
بالليل صرت ظلاما لا نجوم فيه ... ولا بدور ولا فقدان للغبس[3]
ياليل طيبة ما أشهاك عند جوٍ ... يعتاد منك الصباح الطيب النفس
ياليلنا بتهامات الحجاز ويا ... طيب الهواء بلا رطب ولا يبس
يا ليل مكة ياذا العدل حُدّ لنا ... ليل النصارى تعدّى الحدّ فى الدلس(4)
ياليل أصبح وأسجح قد ملكت وذر ... ما أنت فيه من الطغيان والهوس
والطف بشيخ قريش فى تفرّده ... ينلك ماشئت من عنس ومن فرس(5)
والطف بشيخ قريش فى تعربه ... عن الأباطح دار الأنس والأنس
والطف بشيخ قريش فى توحشه ... ليل التمام من الناقوس والجرس
كانت خديج بأرض العرب تؤنسه ... ليل التمام بأشهى منطق سلس

---

(1) اب، الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 392، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 532 ،56، وسركيس (يوسف إلياس المصدر السابق، ص: 1149، وابن التلاميذ: أشهر الكتب نفسه مخطوط بدار الكتب الوطنية التونسية، رقم 18675.

(2) ابن التلاميذ: الحماسة السابقة، ج1، ص: 23 - 24.

(3) الغبس: لون الرماد، أى بياض فيه كدرة، وهنا أول ظلام الليل.

(4) الدُّلَس بفتحتين: الظلمة.

(5) العنس بالفتح: الناقة القوية.

ويجتنى عسلا ناهيك من عسل من قبله الشنب المعسول واللعس(1)
وها هنا نفسه كادت تفيظ جوى لولا خيال خديج نومه الغلس(2)
يجلو دياجى ليل الروم منه سنا يغنى عن البدر والمصباح والقبس(3)

كما تعرض إلى حالته هذه وغيرها فى قصيدة له أخرى فى شأن هذه الرحلة كتبها فى الأندلس، ومطلعها، يخاطب فيه الريح متشوقا إلى المدينة[4]:

يا ريح طيبة هبى لى صباح مسا واستصحبى من أريج المصطفى نفسا

ومنها فى وصف الباخرة[5]:

خضت العباب من الملح الأجاج على نجيبة لم تكن جلسا ولا فرسا(6)
....
من عزه الشعر قولا حين يركبها تفجر الشعر فورا منه وانبجسا

ومنها فى الأندلس[7]:

جزيرة العلم والإسلام قبل وقد هدت قواعده بالكفر فارتكسا(8)
وجدت كتبا بها غراً محجلة منها الجديد ومنها الرث قد درسا
....
أمسى حديثا معاداً أهل أندلس وأعظما رحما كانت هى الرؤسا ....

وأرسل من الأندلس إلى تلميذه أمين برى بالحجاز بمقطوعة، وهى أول ما كتبه هناك، بث فيها بعض مشاعره وما يتعلق بهذه الرحلة وغيرها، ومطلعها[9]:

---

(1) الشنب الفم الأبيض الأسنان الحسنها. اللعس: سواد مستحية فى بعض الشفاة.
(2) تفيظ: تموت.
(3) القبس: شعلة النار تؤخذ من النار.
(4) ابن التلاميذ: المصدر السابق 19/1.
(5) المصدر السابق 20/1.
(6) الجلس هنا: الناقة الوثيقة أو الجمل.
(7) المصدر السابق 21/1.
(8) ارتكس: انتكس.
(9) المصدر السابق 24/1

سـلام عليكم أنتم الأنس كله وإن غبتم فالكتب عندى هى الأنس

ومنها[1]:

ومن يسع للعلياء مثلى دائبا يصاحبه فى مسعاته الجن لا الإنس
تجوب بى الأقطار شرقا ومغربا خفاف الخطى لا حجر منها ولا عنس[2]

وعاد ابن التلاميذ من أوربا بلائحة الكتب المطلوبة من إسبانيا، وقد يكون أتى بغيرها من لندن وباريس، ولكن لاشئ يدل على ذلك، أرسل إليه الخليفة يريد منه تقديمها إليه، فامتنع ابن التلاميذ من تسليمها قبل أخذ أجره، ثم قيل له بأن ذلك سوف يأتيه، فلم يقبل، فغضب الخليفة، وأخبره بعدم الحاجة إليها، فأهمل أمر الكتب، وضاعت جهود صاحبنا، وبقيت اللائحة وهى موجودة الآن بدار الكتب الوطنية التونسية مخطوطة بالعنوان السابق برقم 18675 بقسم المخطوطات، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الهامش.

ولما شرع ملك السويد والنرويج أسكار الثانى فى عقد المؤتمر الثامن للعلوم الشرقية باستكهلم عام 1206هـ طلب من السلطان التركى السابق إرسال ابن التلاميذ إليه من أجل اللغة العربية لعلمه بصلاحه لذلك، وكان ابن التلاميذ آنذاك بالأستانة لأمر يخصه هو وقومه الشناقطة فى المدينة المنورة، فأمر السلطان رجاله، وهم الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وناظر المعارف العمومية، بإبلاغ رغبته فى ذلك إليه ليتوجه إلى هناك استجابة لطلب ملك السويد، فقبل بشروط، هى: قضاء حاجته التى قدم من أجلها، وهى رفع يد من كان يصفهم بالظلمة عن وقف الشناقطة بالحجاز، وإعطاؤه أجر رحلته السابقة إلى الأندلس وغيرها سنة 1204هـ [3]، وأن يكون سفره إلى السويد هذا لرفع شأن الإسلام والمسلمين بأن

---

(1) المصدر السابق 1/24.

(2) الحجر: أنثى الخيل التى يضن بها على غير حصان كريم.

(3) المصدر السابق 2/1

يختار ثلاثة أو أربعة من ذوى علم باللغة العربية، وأن يرافقه مؤذن وطباخون مسلمون....

وكان سفير السويد بمصر فى ذلك الوقت – وهو المستشرق الكونت كارلودى لندبرج – قد وصل إلى الأستانة لمعرفة ما انتهى إليه أمر سفر صاحبنا، وكان يعرفه، فذهب إليه، وقابله فرحا للذى تحقق من سفره إلى مؤتمرهم، ثم سأل ابن التلاميذ المستشرق عما يريده ملكه من حضوره إلى المؤتمر، وعما يطلبه، فذكر له أنه يريد منه إنشاء «قصيدة غرّاء على أسلوب شعر العرب العرباء، على أسلوب شعر شعراء المسلمين» فى ذلك الزمن، لأنهم ، كما قال كانوا يأخذون شعر من سبقوهم كاملا عدا الروى الذى كانوا يبدلونه، ثم سأله عن غرضهم من القصيدة، فذكر له أمورا ستة، هى مدح الملك – وسأله عما يقول فيه، فأجاب بأن يصفه بحبه المعارف وانتشارها، والعلم وأهله، وبأنه طلب من «ملوك الممالك» إرسال بعض أهل العلم إلى مؤتمره هذا دون تعيين شخص إلا أنت فقد عينك وذلك من أجل لغة القرآن الكريم – وأن تذكر اسمك ولقبك فيها، وتذكر رحلتك للعلم وكيف حصلته، وأن تذكر ما استنتجته فى العلم فى هذه الرحلة مما تسبق إليه، وتذكر أسماء أشهر القبائل العربية، ثم تذكر فى النهاية اسمك فيها لمنع ادعاء غيرك لها، وهى القصيدة الأولى فى الجزء الأول من حماسته.

ويشير ابن التلاميذ بالمناسبة إلى أن ذلك السفير المستشرق كان يسمى نفسه الشيخ عمر السويدى، ويطبع الكتب العربية باسمه المنتحل، ك «شرح ديوان زهير» للأعلم الشنتمرى من أجل ترويج تلك الكتب بين العرب والمسلمين، وهو أمر قد يدل – ضمن ما يدل عليه – على أن تلك الكتب قد وُضِعَ فيها[1].

---

(1) وبمناسبه هذا الاسم المنتحل، وهو عمر، الذى وهم فى منعه من الصرف من قبل صاحبنا، كما يرى، منذ أثنى عشر قرناً، وبمناسبة طلب السفير أن تتضمن القصيدة ما استنبطه ابن التلاميذ من العلم مما لم يسبق إليه، أنشأ القصيدة وفق الطلب، ونص فيها بوجوب صرف «عمر» ونظائره التى على وزن من المعدولات، وهو أحد استنتاجاته التى لم يسبق إليها، ثم رثى نفسه فيها بعد انتهاء الغرض المطلوب منها، وذكر من يندبه من الأهل والأصحاب= =

وقد انتدب الخليفة لهذا المؤتمر مع ابن التلاميذ الكاتب التركى الشهير مدحت أفندى، وآخرين معه... ثم إن صاحبنا لم يذهب، لأن رجال الخليفة لم يقبلوا بعض شروط صاحبنا، أو تباطؤا فى إنجازها، ثم عاد إلى موطنه[1].

ابن التلاميذ ومصر:

سافر ابن التلاميذ من شنقيط إلى المشرق، فقضى فى هذا السفر زمنا لا يعرف مقداره إلا هو، متنقلا بين باقى أقطار المغرب (فى طريقه إلى المشرق)، مدن خلال ذلك ببعض المدن الشهيرة، كفاس، وتونس، وطرابلس، ويبدو من بعض كتبه أنه اتصل بكثير من علماء هذه المدن، ويذكر بعض زملائى الليبيين فى الدراسة أن بعض الليبيين تلمذوا له خلال إقامته فى طرابلس وغيرها من مدن ليبيا وكذا فى تونس ومصر، وقد أخبرهم بذلك آباؤهم أو أجدادهم، وإن لم يبق معى أسماء هؤلاء الزملاء – وهم من طلبة الدراسات العليا – ولا تفاصيل ما قالوه، وأنه تأثر بهولاء العلماء أو تأثروا هم به... ثم وصل إلى مصر، وأقام بالقاهرة مدة عرف فيها جمعا غفيرا من علماء مصر، وأقبل فيها على المطالعة والتحصيل والإفادة فأثر فى غيره تأثيرا قويا قد يقارب تأثير غيره فيه، وأعجب به من عرفه إعجابا قل نظيره، واعتبروه معجزة زمانه لوفرة ما استظهر من المتون وأشعار العرب، وتفرده فى اللغة والأنساب وتاريخ العرب وغيرها...، ومن الذين عرفهم نقيب الأشراف محمد توفيق البكرى، وعبد الباقى البكرى، وشيخ المالكية سليم البشرى، والرافعى، والشيخ بسيونى إمام الحضرة الخديوية، وعلى بن محمد البيلاوى نقيب الأشراف فيما بعد ورأس مشيخة الأزهر، والإمام محمد عبده.

-- والعلوم والكتب، وسلك فيها «مسلك شعراء العرب العرباء، كمالك بن الريب المازنى وفحول العلماء الحفاظ الأدباء، كابن عبد البر الأندلسى النمرى»، ثم أنشدها وزير المعارف التركى، منيف باشا والسفير المذكور، ثم أراد السفير طبعها، فلم يسمح له بذلك قبل انتهاء الرحلة. ثم ذهب السفير إلى استكهلم، وكتب خطبة عربية نيابة عن الملك ذكر فيها لهم حضور ابن التلاميذ مؤتمرهم، وقد أورد ابن التلاميذ فى حماسته بعض الخطبة المذكورة.

(1) انظر المصدر السابق 2/1 - 17، وتيمور (أحمد): المصدر السابق، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 532، وابن الأمين (أحمد) المصدر السابق، ص: 393.

ثم قصد مكة للحج ، وأقام هناك. وبقى على اتصال بأصحابه السابقين وغيرهم فى مصر لمروره بها فى طريقه إلى تركيا التى كان كثير السفر إليها، وكان ينزل فى طريقه – فى مصر – عند عبد الباقى البكرى السابق وغيره. ونزل عنده مرة، وهو عائد من الحجاز، ووافق ذلك أحد الأعياد، فجاء شيخ المالكية سليم البشرى السابق يهنئ البكرى، ومعه الرافعى وغيره، فلما اطمأن مجلسهم قال الرافعى من أجل أن يوقع بين صاحبنا والبشرى: شنآناً، يا مولانا، تنصرت بعدنا، حيث لبست الخف الأسود؟»[1] فرد عليه صاحبنا بأن ذلك من السنة، فنفى البشرى ذلك، وقال بالإجماع على كراهته، فؤكد ابن التلاميذ ثبوت لبسه فى الصحيح بأن النجاشى أهدى إليه ﷺ خفين فلبسهما ومسح عليهما، ثم سأله ابن التلاميذ عن لونهما فردّ بعدم المعرفة، فرّد عليه بأن الذى يقول بالإجماع لا يكون جوابه «لا أعرف». ثم طلب من ابن التلاميذ إفادتهم فامتنع، ثم أراهم الحديث، فعمل البشرى على تضعيفه، وكثر الكلام فى هذه المسألة، ونظم ابن التلاميذ فى الموضوع قصيدته الشهيرة:

بندوة زيد دار عزّ القبائل قريش وقيس ثم أحيا وائل

التى هجا فيها البشرى، ومن ناصره من الأزهريين، وبين فيها أن لبس الرجال هناك غير الخفاف السود من حمرها وخضرها هو البدعة وجهل السنة، لأن سود الخفاف خاصة بالرجال، وغيرها خاص بالنساء[2].

ثم غادر ابن التلاميذ مصر متجها إلى الحجاز حيث إقامته، وكان على غير

---

(1) ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 390.

(2) تيمور (أحمد) المصدر السابق، ص: 370، والزركلى (خير الدين): المصدر السابق، 311/7، ومجاهد (زكى محمد): المصدر السابق 174/2، وكحالة (عمر رضا): المصدر السابق 313/11، وسركيس (يوسف أليان) المصدر السابق، ص: 115، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 532 .533 وابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 393، وأحمد أمين: محمد عبده، ص: 98، وابن التلاميذ: المصدر السابق 134/2.

وفاق مع بعض سكانه ذوى الجاه والسلطان بالمدينة العثمانى فى ذلك الوقت بعد أن شكاهم إلى الخليفة التركى، كما سبقت الإشارة، ورجع دون تحقيق مراده، ثم زادت العدواة بينهم وبينه، فترك المدينة والحجاز، ورجع إلى مصر مهاجرا إليها وحيدا، وترك كتبه وأهله عند تلميذه أمين برى الآنف الذكر. وقد ذكر تفاصيل ذلك فى نونيته التى ضمنها أسباب هذه الهجرة، ومنها قوله يعنى مصر:

رحلت عن الرسول وصاحبيه إلى بلد على علمى أمين

وقد استقبله فى مصر صديقه السابق، نقيب الأشراف، توفيق البكرى، فأكرمه، واستأجر له بيتا، وأجرى عليه راتبا شهريا. ثم بعث توفيق أحد أعوانه ليحضر أهل صاحبنا وكتبه، وأنفق على ذلك من عنده، وألقى صاحبنا عصا التسيار بالقاهرة، وأقبل على المطالعة والإفادة.

وكان توفيق البكرى إذ ذاك يؤلف كتابه «أراجيز العرب»، فاستعان بابن التلاميذ على تأليفه، ثم طبع الكتاب منسوبا إلى البكرى وحده، فغضب ابن التلاميذ، وكان فيما يبدو، يريد نسبته إليهما معا، وجرى بينهما كلام طويل فى الموضوع رفع خلاله ابن التلاميذ على البكرى قضية، ثم فشل فيها، ففارقه، وحاول البكرى إخراجه من مصر لولا صديقه محمد عبده الذى سمع بذلك، وكان من المعجبين به، فاتصل به، وأعطاه دارا قرب الأزهر، وسعى له فى راتب من الأوقاف، وارتبطا بصداقة غير مشوبة بقيت قوية حتى فارقا الحياة[1]. يقول فى بعض ذلك فى رثائه نفسه فى قصيدته السابقة المنظومة لمؤتمر العلوم الشرقية وذكره من يندبه[2]:

---

(1) مجاهد (زكى محمد): المصدر السابق 174/2، وابن التلاميذ: المصدر السابق 147/2.

(2) المصدر السابق 14/1، 15، وابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 393، وتيمور (أحمد): المصدر السابق، ص: 370، والزركلى (خير الدين): المصدر السابق 312/7، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 532، وكحالة (عمر رضا): المصدر السابق 313/11 وأحمد أمين: زعماء الإصلاح، ط3، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1971م، وأحمد أمين محمد عبده، ص: 98.

تذكـــرت من يبكى على فلم أجـــد سوى كـتب تختـان بعـدى أو علمى
وغيـر الفـتى المفـتى مـحـمـد عـبـده الصـــديق الصـــادق الودّ والكلم
....
وكـــان على علم وبر صـــداقنا إذا كـان من قـوم صداق على إثم...

ويبدو من هذا وغيره أنه قال هذه القصيدة بعد اتصالـه بمحمـد عبـده، وإن كـانت المعلومـات لا تؤيد ذلك، وهو مـا قـد يرجع إلى عـدم تثـبـت من ترجمـوه بعد وفاته بمدة قد يصل اقلها مما ذكر فيه نظمه هذه القصيدة إلى نحو عشر سنين.

ولما أسس محمد عبده بمصر سنة 1318 هـ جمعية برئاسته أطلق عليها «جمعية أحياء الكتب العربية» استعان بابن التلاميذ فى تصحيح الكتب ونشرها، وكان أول عمل قامت به طبع كتاب «المخصص» لابن سيده، وهو معجم كبير من معاجم العربية لم يقم نظامه كغيره على ترتيب الألفاظ بل رتب على حسب المعانى. وقد تولى محمد عبده تصحيحه مع ابن التلاميذ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى محمد عبده الذى لولاه لما أقام هناك، وكان محمد عبده يستشيره فيما يتعلق باللغة والدين، ويأخذ برأيه. ومن هذا القبيل مثلا أن بعضهم نقد «رسالة التوحيد» لمحمد عبده بأن فيها «نزعة اعتزالية»، ثم قصد ابن التلاميذ بيت صديقه محمد عبده، فقرأ معه الرسالة خلال يومين تدارساها فيهما، ثم اعترف ابن التلاميذ له بالإصابة وقول الحق، وسلم له محمد عبده بما نقده به، وشكره عليه، ومنه على سبيل المثال قول محمد عبده فى الرسالة: «دعيت لتدريس...»، وقد آراه ابن التلاميذ أن صوابه «دعيت إلى تدريس...»، وكلامه فيها عن خلق القرآن، وقد ذكر له فيه صاحبنا أن به مخالفة لسيرة السلف فى العقائد، فالسلف لم يبحثوا فى هذه المسألة، ثم عاد محمد عبده لإلقاء درس فى الأزهر بالرواق العباسى، فحدث الطلبة عن شأن الرسالة، وشرح لهم رأى ابن التلاميذ، وأثنى عليه وعلى علمه وفضله، ثم ألقى ابن التلاميذ، وكان حاضرا، كلاما فى الموضوع زاده وضوحاً

وقصيدة عامرة نوه فيها بمزايا محمد عبده ورفعته، وأشار إليه بيده عند ذكر اسمه في مطلعها[1]:

لقد مات دين الله وانحل عقده فأحياه بالذكرى محمد عبده

وكان لابن التلاميذ في الجمعية السابقة نشاط كبير، فكان يشرح ما تعقد في الكتب ويصحح أخطاءها، وينشر البحوث الدالة على سعة الاطلاع والإحاطة[2]. ويبدو أن هذه البحوث لم تكن تنشر باسمه بل باسم الجمعية، وإن لم أجد ما يدل على ذلك.

وقد قال ابن التلاميذ شعرا كثيرا في صديقه هذا، وهو شعر يدل على إعجابه بهذا الصديق، وعلى نقاء علاقته به والاحترام المتبادل بينهما، وعلى سعيهما من أجل إصلاح العلم وتنقيته من شوائبه. وقد يكون اتفاقهما والتقاؤهما راجعا إلى شمائل غاياتهما التي عاشا من أجلها أو تقاربها أو تقاربهما في بعض الصفات والشمائل، فكانا كما قيل: «واف شنّ طبقة»... ومن ذلك ما تقدمت الإشارة إلى بعضه في قصيدته التي نظمها للمؤتمر المذكور، ومنه أيضا قوله[3]:

سيبكيني المفتي إذا اعتاض مشكل تمنع كالأروى على طودها العصم
فعصم العلوم كنت أنزلها له إذا اعتاضت آرواها على كل ذي فهم
سيبكي على العلم والكتب بعد ما صدعن بأمرى غير صم ولابكم
مخصصها المطبوع يشهد مفصحا بما حاز من ضبطي الصحيح ومن رمّى
بذا يشهد المفتي وأصحاب طبعه ولا يكتمون الحق كتمان من يكمى

---

(1) مقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص57، ورشيد رضا (محمد): تاريخ الأستاذ الإمام، ط1، مطبعة المنار، القاهرة، 1350 هـ 1931م، المنار (حجلة) طبع مطبعة (مجلة) المنار، القاهرة 1322هـ/ 1904م، ط2، ج1، ص: 465.

(2) أحمد أمين: المصدر السابق، ص: 98، وأحمد أمين: زعماء الإصلاح السابق، ص: 364، ومقلد (محمد يوسف) المصدر السابق، ص: 533، وابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، وكحالة (عمر رضا): المصدر السابق 313/11، والزركلي (خير الدين): المصدر السابق 312/7، ورشيد رضا (محمد): المصدر السابق 754/1.

(3) ابن التلاميذ: المصدر السابق 14/1 .15.

ومن شعره فيه فى غير هذه القصيدة قطعة فى تهنئته بعودته من الأستانة وأوربا (16 جمادى الآخرة عام 1319هـ)، ومنها[1].

للجامع الأزهر المعمور عاد على ... رغم الحسود فتى مصر ومفتيها
محمد الفحل عبده بدر هالته ... خيراته ديمة هطلاء يؤتيها
....
سفائن العلم فى ذا الشرق لان غدت(٢) ... أعلامها بيديه وهو نوتيها

وأبيات فى نفس المناسبة مطلعها[3]:

أيا من قد نأى عنا وغابا ... وبعد قضائه الحاجات آبا

وكذا البيت اليتيم فى المناسبة ذاتها[4]:

إلى عين شمس عدت يا شمس عصرنا ... ويا رجل الدنيا ومفتى مصرنا

وقد أردفه بقوله: «وحلتى هذه سبيلها سبيل حلة عائشة بنت صلحة (رضى الله تعالى عنهما)، غير أن هذا الشعر شعرى، وذلك شعر قيس بن الحدادية». ثم قال مبينا مقصوده: «وشرح ذلك أن أم عمران عائشة بنت طلحة أنشدت عينية قيس بن الحدادية الخزاعى الجاهلى فاستحسنها، وبحضرتها جماعة من الشعراء، فقالت: من قدر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه، فلم يقدر أحد منهم على ذلك ا هـ...».

ومن الأمور التى كان ابن التلاميذ يعيبها على أهل زمانه، ويرى فعلها مخالفا للدين احتفال المصريين السنوى بكنس قبة الشافعى وضريحه. وقد نظم فيه قصيدة رائية كتبت آنذاك فى بعض الصحف، كجريدة «مصباح الشرق» (شعبان

---

(1) رشيد رضا (محمد): المصدر السابق 862/1، والمنار 549/4.

(2) لان يريد بها: الآن.

(3) انظر المصدرين السابقين.

(4) انظر المصدرين السابقين.

1317هـ)، وتوقد فى آخر الجزء الثانى من حماسته، وذلك اتباعا لأمره تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما يقول، ومنها[1]:

امصباح شرق الأرض أسمعت واعيا وذكرت ذاسهوسها متذكرا

ومنها أيضا:

فلو كان كنس القبر لله قربة لكان به قبر الصحابى أجدرا
فعندكم ابن العاص عمرو أميركم به فتح الله البلاد وعمرا
وأصحابه صحب النبى محمد وأتباعهم فحلو هرقل وقيصرا

ومنها أيضا:

وغرت على أم الكتاب صيانة لآى الكتاب أن يهان ويحقرا
....
ولم يتلها فوق القبور نبينا ولا صحبه نور الظلام لمن سرى

ومنها أيضا:

حضرت ضريح الشافعى محمد لتنظر كنس القوم قبرا مغبرا
وقادة أهل العلم جاثون حوله لتيسير ما يرجون مما تعسرا
يناجون رب القبر سرًا وجهرة لما يبتغون من حطام تكسرا

ويبدو مما تقدم زيادة على أمر القبة أن قراءة القرآن على القبور بدعة، وأن زيارة القبور لغير العبرة بدعة هى الأخرى...

ولابن التلاميذ قصيدة أخرى يخاطب بها نظار الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أو وزراءها، قالها بعد منعهم نسخ الكتب بالحبر من دار الكتب المصرية (الكتبخانة الأميرية). وكان ذلك أوان نسخه بعض الكتب منها سنة 1317هـ. ويظهر لنا منها شدة غرامه بنسخ الكتب، ومنها[2]:

---

(1) انظر القصيدة فى الحماسة 154/2 -157.

(2) انظر المصدر السابق 132/2.

أتيتكم شاكيا أبغى عدالتكم لا فضة أبتغى منكم ولا ذهبا
لكننى أبتغى أن ترفعوا ضررا ظلما أضر بمصر الأهل والغربا

II- ابن التلاميذ فى الحجاز:

وصل ابن التلاميذ إلى الحجاز بعد قضائه زمنا بمصر، فحج، واجتمع بأمير مكة، الشريف عبد الله بن محمد بن عون، جدّ حسين بن طلال الحالى، فأكرمه، واختصه، وطلب منه البقاء عنده، فوافقه.. وبقى عنده زمنا هو وأهله، وكان من المعجبين به لعلمه وصدقه فيه[1]:

وكانت تقع بينه وبين علماء مكة والواردين عليها مناظرات ومحاورات علمية فى مجلس الأمير، كان هو الفائز فيها دائما، فزاد حبّ الأمير له وتعويله عليه فى العلم دون غيره، فحسده شيوخ مكة، وكادوا له كيدا أدى به إلى المراوحة فى الإقامة بين مكة والمدينة، فنتج عن ذلك أن عرف كثيرا من علماء المدينة وأعيانها، وتلمذ له عدد منهم ومن غيرهم، كأحمد البرزنجى وعبد الجليل برادة، وهما من تلاميذه المشهورين هناك[2].

وخلال تلك المراوحة بدأ فى تأليف كتابه أو رسالته «عذب المنهل» الذى خطأ فيه ابن مالك ومن بعده من النحاة لقولهم بعدل «ثعل» ومنعه من الصرف، وهو ما يرى صاحبنا عدم صوابه، وأن الصواب صرفه وعدم عدله، والذى ختمه بمكة سنة 1291هـ، ثم أهداه إلى أميرها، فعلم علماء مكة وانتحلوا ، كما يقول، بيتين

---

(1) تيمور (أحمد) المصدر السابق، ص: 370، وابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 381، ومجاهد (زكى محمد): المصدر السابق 174/2، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 528، 529، وكحالة (محمد رضا): المصدر السابق 313/11، والزركلى (خير الدين): المصدر السابق 311/7، وسركيس (يوسف أليان): المصدر السابق، ص: 1149.

(2) انظر مجاهد (زكى محمد): المصدر السابق 174/2، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص29، وابن الأمين (أحمد): المصدر السابق ص 381.

نسبوهما إلى دريد بن الصمّة الجشمي أوردوا فيهما «ثعلا» مصروفا وغير مصروف، وهما:

وسل بنى ثعل أسمى الرماة وهم منا لأروغ خوف السبى من ثعلا
وسل كلابا ويربوعا وقد أخذوا هام الإكام لهم من بأسنا عقلا

وذلك لإبطال كلام ابن التلاميذ بأن «ثعل» الأول اسم أبى قبيلة من طيئ صرف ضرورة أو لغير الضرورة على رأى بعض أهل اللغة، وأن «ثعلا» الثانى اسم لأنثى الثعلب صرف ضرورة أيضا، وهو ما سيأتى الحديث عنه... ثم أرسلوا البيتين هدية إلى الأمير، وزعموا له وجودهما فى «الجمهرة»، فلما قرأهما، وكان اعلم أهل مكة بنقد الشعر، كما قيل، تجافى طبعه عنهما، ثم طلب حضور صاحبنا، ومعه «الجمهرة»، ثم أتاه بها، وطلب منه إخراج البيتين له منها، فنفى له وجودهما فيها، وأراه أنهما منتحلان لا يوجدان فيها ولا فى غيرها، وذكر له الأدلة على ذلك وعلى عدم إمكان نسبتهما إلى أهجن الشعراء، وهى عشر غلطات فى كل منهما خمس منها، فصدقه الأمير. كتب فى الموضوع رسالته «الحق المبين المضاع فى رد اختلاف الجهلة الأوغاد الوضّاع»، وهو وكتابه السابق «عذب المنهل» فى كراسة واحدة، والأخير هو الأول، والكتاب أو الكراسة بعنوانه[1].

ثم إن أحد أدباء اليمن ، اسمه عاكش، أتى مكة، فأهدى إلى الأمير شرحا له على «لامية العرب»، ثم قرأه، فرأى فيه أوهاما فى الرواية واللغة والنحو وغيرها، فطلب الأمير من ابن التلاميذ إظهار بعض ذلك أمام الملأ، وكان عاكش موجودا، ففعل، وأعجب به الأمير، وسيئ صاحب الشرح، ثم عاد إلى موطنه دون نيل مبتغاه[2]. ثم طلب الأمير من ابن التلاميذ كتابة حاشية على هذا الشرح، فكتب «إحقاق الحق»، وهى حاشية فريدة من نوعها، أظهر فيها أوهام عاكش، ونالت

---

(1) انظر عذب المنهل، وهو مخطوط، ص: 7 (أ) - أ (ب).

(2) ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص : 381، ومقلد (محمد يوسف) المصدر السابق، ص 529، وتيمور (أحمد): المصدر السابق، ص: 371.

إعجاب الأمير، وقرظها تلميذه عبد الجليل برّادة المغربي[1]، وما تزال مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، تحت رقم : 1846.

ثم ملّ من الإقامة بمكة بسبب حسد علمائها له، كما يقول. ففضل أن يقيم بالمدينة إقامة دائمة، فأقام بها، وكثر تلاميذه والمعجبون بعلمه، فأكرموه، وأطالوا الثناء عليه وعلى علمه وفضله، وظلت علاقته بالأمير السابق قوية على الرغم من ذلك. ثم تبدلت الحال بعد ذلك، فاختلف مع كثير من علماء المدينة وتلامذته بها. ويرجع ذلك إلى كثرة نقده غيره من العلماء من أهل المدينة وغيرهم، وربما يرجع بعضه إلى فقدان بن التلاميذ سنده القوى وهو أمير مكة، إذ يبدو ذلك من قوله[2]:

وقد فقدت قريش فلا قريش بمكة والأباطح والحجون
ولا حلف الفضول اليوم فيها لغوث المستغيث المستكين
وليس بها أبو شرف أميرا لعلمى يجتدين ويجتبينى

أى أن الأمير قد مات[3]، وعندئذ تعذرت عليه الإقامة هناك، فترك كتبه وأهله عند تلميذه أمين برّى، وذهب إلى مصر مهاجرا، يودعه بعض أعيان المدينة وعلمائها وتلامذته، كالأديب محمد عبد الرحمن القاضى، وسعد المخرج وأمين برى[4].

وكان أهم الذين خالفوه وكانوا السبب فى هجرته تلميذه السابق أحمد البرزنجى وأهله البرزنجيون لما تقدم من نقده كتب بعضهم وبعض أجدادهم ولمناصرتهم بعض القدماء الذين خطأ هو بعضهم كالقاضى عياض، ولإبطاله

---

(1) انظر الإحقاق، ص 51 (ب)، وتيمور (أحمد): المصدر السابق، ص: 371، وابن التلاميذ: الحماسة السابقة 107/2، 149.

(2) المصدر السابق 47/2.

(3) توفى سنة 1294هـ، رحمه الله.

(4) ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 393، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص 529، وابن التلاميذ: المصدر 141/2-148.

لنسبهم الشريف فهو الذى أظهر أنه كان ملفقا ومرجوعا إلى من لم يلد إذ كان زاهدا، لم يتزوج ولم يتسر، وهو يوسف بن موسى الكاظم، على حد قول ابن التلاميذ، ولأمور أخرى ساقها...[1].

ومن الذين اختلف معهم هناك الشيخ الدرّاج المغربى رئيس المالكية بالمدينة الذى كان يأخذ من وقف المغاربة مبلغاً لا يأخذه غيره، فرأى ابن التلاميذ أن الدارج غير أهل لتلك الرئاسة، وأنه هو أحق بها منه لكونه كان أكثر منه علما ومن غيره، وكان من المأمول أن يتولى مكانه، ثم ظهر عدم إمكان ذلك لمخالفته لأغلب علماء المدينة وغيرهم[2].

وكان ابن التلاميذ يرى ما شجر بينه وبين غيره هناك من خلافات علمية شيئاً يجب فعله ذبّا عن العلم والحق، وعن حديث النبى ﷺ وأنسابه لإذهاب الرجس عنه وعن آله الأمر الذى عناه تعالى بقوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[3]، ودفاعا عن مالك بن أنس الذى كان بعضهم يخطئه فى بعض ما رواه من الحديث، وعن أحساب العشيرة، وحماية للذمار من الظلمة والبغاة، كما يقول، إذ إن هذا الفعل من الأعمال الصالحة الواجبة على كل مسلم[4].

وكان يرى من الواجب على العلماء معرفة أن العلم ميراث الأنبياء، وإخلاص العمل فيه للواحد الأحد، والابتعاد فيه عن الكذب، ومعاملته أخذا وعطاء بما عامله به النبى ﷺ وصحبه والأئمة من بعدهم، ومن الواجب على حكام المسلمين

---

(1) ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص: 394 - 396، وابن التلاميذ: المصدر السابق 132/2 وغيرها، ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، ص: 534.

(2) ابن الأمين (أحمد): المصدر السابق، ص/381 .382 ومقلد (محمد يوسف): المصدر السابق، 529 - 530، وابن التلاميذ: المصدر السابق 13/2 .33.

(3) الأحزاب: 33.

(4) المصدر السابق 22/2-23.

المحافظة على «مناصب الشرع الدينية كالإمامة والخطابة والقضاء والإفتاء والوعظ والتصنيف والتدريس»، خصوصاً تفسير كتاب الله تعالى وحديث رسوله ﷺ لأنهما كانا، فيما يقول، ضائعين، ولأن المشتغل بهما في زمنه كان مضيّعاً لأول شروط المفسر، وهو حفظ القرآن الكريم، لكون المفسر إذا استحضر آية لا يجوز له تفسيرها لإمكان أن تكون في القرآن آية أخرى «ناسخة لها أو مقيدة أو مخصصة أو مبينة[1]. فلابد له من حفظ القرآن كله، وهو عند ابن التلاميذ ما يشترط في ناقل التفسير أيضا، ولأن المفسرين في زمنه كانوا لا أحد منهم يحفظ غير الفاتحة إلا اليسير، فهم في ذلك الوقت لم يكن لهم غير ما ذكره من هذه الشروط.

ورأى كذلك أن من الواجب على الحكام صون المناصب السابقة عن غير مستحقيها، وأن يولوا عليها أحق الناس شرعا ممن توفرت فيه الشروط الآنفة، وأن من الواجب على العلماء الوقوف عند حدود الله تعالى ورسوله، وأن يتجنبوا ما نهوا عنه في قوله تعالى: «ولا تقف ماليس لك به علم»[2]، وأن يعملوا بقول ملائكته الكرام: «لا علم لنا إلا ما علمتنا»[3]، ويقول زيادة بن زيد العذرى[4]:

إذا انتهى علمي تناهيت عنده ... أطال فأملى أو تناهى فأقصرا
ويخبرني عن غائب المرء هديه ... كفى الهدى عما غيب المرء مخبرا
ولا أركب الأمر المدوى سادرا ... بعمياء حتى أستبين وأبصرا
كما تفعل العشواء تركب رأسها ... وتبرز جنبا للمعادين معورا

ويبدو أن تلك الهجرة التي كانت بغير إرادته أثرت فيه تأثيرا قويا، فظل كثير الحنين إلى الحرمين، وإلى الرسول ﷺ وصاحبيه الصديق وعمر، وبث كل ذلك

---

(1) ابن التلاميذ: الإحقاق المخطوط السابق، ص: 49 (أ).
(2) الإسراء: 26.
(3) البقرة: 32.
(4) المصدر السابق، ص: 49 (أ) - 50 (ب).

فى بعض ما كتبه بعدئذ من شعر ونثر، فظل جسمه بمصر، وروحه هناك فى يقظته ونومه، وذلك خلال حديثه عما يتعلق بهذه الهجرة كقصيدته[1]:

أحنّ إلى الرسول فيعترينى إذا ليلى دجا ما يعترينى

ومنه قوله:

إلى أهل البقيع وساكنيه أرجع موهنا ولها حنينى(2)
على أهل البقيع وساكنيه سلام الله ما اتقادت قرونى(3)
على أهل البقيع وساكنيه سلام الله ما حنت لبونى
أقول لسائل عنى حفىّ بما عندى من الخبر اليقين
وبالسبب الذى جرّ ارتحالى عن الدار التى كانت عرينى
هى الدار التى أبكى عليها بزفرات لشوق يطبينى

ومنها فيمن آذوه هناك[4]:

وما آذيت جيرانى حياتى ولم تكن الأذية من شؤونى
لفرط أذاهم حدثت عنهم نعم إن الحديث لذو شجون
....
فما أنا بالحريص على جوارى هنالك جار سوء مستبين
فجار السوء أخرج باضطرار رسول الله من بلد أمين

ومنها فى الرسول ﷺ وصاحبيه رضى الله عنهما وذويه بالبقيع وسبب الهجرة ووصف المدينة:

---

(1) ابن التلاميذ: الحماسة 141/2.

(2) المؤمن من اليل مثل الوهن منه: منتصفه أو بعد ساعة منه.

(3) يعنى بالقرون ناقته.

(4) المصدر السابق 143/2.

رحلت عن الرسول وصاحبيه ... وعن صنوى محمد الأمين
وعن ولدى وأهلى وابن عمى ... بمقبرة البقيع منى الدفين
....
فجبت الأرض نجدا ثم غورا ... وخبتا بعد منقطع الوجين(1)
على برزل مخيسة عراب ... خدبات ويعمله ذقون(2)
تبذ الناجيات إذا تبارت ... عذافرة مهجنة أمون(3)
لفسق الفاسقين لديه جهرا ... بمسجده لدى القبر المكين
يغادون الفسوق ولم يبالوا ... أتوه من شمال أو يمين
....
عن الحرمين أجلونى بهذا ... أو ان الحج للبلد الأمين(4)
وما ذنبى غبر علمى ... ببهتان يؤلف فى الفنون
وكانت طيبة بلدا أمينا ... مهاجر كل ذى علم يقين(5)
ومأوى المؤثرين على نفوس ... لهم ملئت من الحلم الرزين
هداة الخلق من عرب وعجم ... إلى الإيمان والرأى الوزين
فصارت للغواة اليوم حرزا ... ومأوى للرغيب وللبطين

ومنها فى تعليمه الذين كانوا سبب هجرته(6):

وقد ربيتهم عشرا وعشرا ... وخمسا كاملات من سنين
بإطعاميهم والعلم غث ... سدائف من ذرى علمى السمين
بسقييهم وخمر العلم خل ... سلافة خمر علمى ذا المعين
أعلمهم وأعرض عن أمور ... مريبات أسان بهم ظنونى

---

(1) الخبت: المطمئن من الأرض. الوجين: العارض المرتفع قليلا، الغليظ الصلب من الأرض

(2) المخيسة: المذللة. خدبات: طويلات. اليعملة: الجمل والناقة المطبوعان على العمل. الذقون: الناقة ترخى ذقنها فى السير.

(3) تبذ: تغلب وتفوق. الناجيات: النياق السريعة. العذافرة: السديدة من النوق. المهجنة: المنوعة من غير فحول بلادها. أمون: مأمونة العثار.

(4) المصدر السابق، 44/2.

(5) المصدر السابق، 44/2.

(6) المصدر السابق 145/2.

وفى صدقه فى ردوده عليهم فيما خالفوه فيه[1]:

فـــربى الله يعلم صـــدق قـــولى ويعلمـــــه الورى علم اليـــــقين
فـــــلا والله مـــــا إن قلت زورا وهذا المنتـــهى جـــهـــد اليـــمين

ويبدو من كلام ابن التلاميذ أنه كان له علاقات ببعض البلدان الأخرى، وهو أمر لاشك فيه، ولكن المعلومات الأخرى لم تقد شيئا ضد هذا القبيل ذا بال، فكان له بسوريا أصدقاء من الأدباء والشعراء معجبون به، وربما كان له هناك تلاميذ. ومن هؤلاء إبراهيم أفندى كرامة الذى كان يتبادل مع صاحبنا الرسائل فى آخر القرن الثالث عشر وأول القرن التالى. ومن هذه الرسائل رسالة كتبها إبراهيم هذا إلى ابن التلاميذ، ومدحه فيها، ويظهر أن ذلك كان خلال إحدى زيارات صاحبنا لتركيا أو بعدها، ومنها قوله[2]:

من أفق شنقيط فى أعلى فـروق بدا[3] بدر سنا فضله فى الكون مـشـهـود
فـــعـــالـه وســـجـــاياه وســـيـــرته ووصفه واسمه فى الناس محمود

---

(1) المصدر السابق 148/2.

(2) المصدر السابق 125/2.

(3) فروق: لقب القسطنطينية.

مداخلة :

د. محمد عبد الرحمن ولد سيد محمد (حمان)*

سأحاول أن لا أطيل فى مداخلتى مع شكرى مسبقا للقائمين على هذه الندوة: أقول إن محمد محمود بن التلاميذ قد تمكن من خلال اعتداده الكبير بذاته وخلفيته الثقافية وإحساسه بالتفوق على اقرانه من مثقفى المشرق أن يحقق مسألتين أساسيتين فى نظرى إضافة إلى إخلاله بالمسلمة الخلدونية المعروفة والقائة بأن «الثقافة سليلة العمران».

– فهو من ناحية قد فرض رؤيته العلمية وأسلوبه الكلاسيكى فى اكتساب المعارف باعتبارهما انجح من غيرهما فى استيعاب مكونات المنظومة الثقافية العربية الإسلامية، ومن ثم الابداع والتنوير فى إطارها – ومن ناحية ثانية التعريف بالنسق الثقافى الشنقيطى باعتباره نسقا استطاع من خلال محافظته وسمو وغنى البنى المكونة له أن يفرض نفسه كبديل للأنساق الثقافية الأخرى فى المشرق نظرا لتآكلها وارتابتها الشئ الذى يعبر عن نقد صائب لها وبالتالى تجاوزها. ولعل ذلك هو ما ألهم طه حسين طريقته النقدية أثناء تتلمذه على الشيخ الشنقيطى ومعايشته لثورته على علماء الأزهر فتولدت لديه بذور النقد وشحذت فيه إرادة الخروج على المومياات المعرفية الأزهرية. ولعل ولد التلاميذ شأنه شأن زميله وابن طينته أحمد بن الأمين إنما حاول استغلال رأس المال الرمزى المتوفر لديهما والمتمثل فى ثقافتهما الواسعة من أجل ممارسة ما يرتجى فى العادة من المثقف النخبوى أن يمارسه من دور ابداع وتنوير ونقد وتجاوز وقد قاما بدورهما على أحسن وجه. ففى الوقت الذى كان محمد محمود بن التلاميذ حاضرا في المحافل العلمية مقارعا لكل ادعياء الثقافة وحاملا ليافطة هويته الشنقيطية منكبا

---

* أستاذ بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة نواكشوط.

فى نفس الوقت على تحقيق متون النصوص العربية الإسلامية الأكثر تمنعا، كان أحمد بن الأمين يتوج مجهوده التأليفى والتحقيقى بإملائه من ذاكرته لكتابه الموسوعى «الوسيط» موثقا ضمنه أهم التقاليد الثقافية والسياسية والاجتماعية لأهل شنقيط مهديا إلى شعراء المشرق والمغرب الناهضين على السواء أمثلة شعرية يمكن أن تحتذى ويقتبس منها دون الرجوع خلفا عبر مهامة القرون إلى العهد الأموى والعباسى فكان ما كان من شعر البارودى وشوقى وغيرهما من أعلام شعراء النهضة هكذا إذا يمكن القول إن هذين الرجلين الشنقيطيين اللذين يرتديان جلباب البساطة والتقشف قد استحقا فى رأيى أن يوصفا كنموذج للمثقف الموريتانى النخبوى فى عهده (الكلاسيكى الحديث) لأنهما استطاعا الخروج من مجال أفقهما الاجتماعى كما استطاعا الخروج على تقليد مثقف الرحلة الحجازية المشرقية المقتصر على دور تدوين الرحلة والمحاورة فتجاوزا إلى مستوى الاستكشاف والنقد والتحرى والفعل الثقافى المؤثر فى إطار العمل الإبداعى والنقدى والاحتجاجى المنطلق من روح الفكر والطارح للهامشية. بكلمة واحدة لقد حاول ولد التلاميذ وولد الأمين أن ينحتا تصورا للبلاد الشنقيطية وأهلها لدى الإنسان المشرقى تصورا يمكن القول إنه محا الرسم الإجتماعى والثقافى للمجتمع الشنقيطى لدى الإنسان المشرقى وأبدله برسم يجسد الفضيلة والتسامى المستندين إلى المعرفة النخبوية الجمة والكبرياء المبرهن. ولقد كان بإمكان المثقفين والسياسيين الموريتانيين الناشئين بعد ذلك أن يستلهموا هذا المنحى فى علاقتهم بالمشرق وفى تصوراتهم عن المجتمع والدولة الموريتانية الحديثة وانتمائهما الثقافى والحضارى على نحو يجعل محاولة الاتصال بالمشرق والارتباط به فى كل زمن وظرف وعبر أى إطار محاولة مشوقة ومقنعة لا تحمل أية لمحة للطرفية أو المغايرة أو الرغبة الحادية. الأمر الذى أرى أنه لم يتم فكان ما كان من عقدة الانتماء والتضايق من المقارنة بالاطراف والتحسر من مفعول وظائف «حتى» بعد أن اندرس فى المشرق رسم الشيخين.

وهنا سأغتنم الفرصة للإشارة إلى حالة المثقف الموريتانى المعاصر فاعتقد أنه لم يتمكن أبدا من الخروج من صفة المثقف التقنى أو خبير المعرفة أو المثقف الزبون للدولة ولكل سلطة تقوم، أو اللاهث وراء بريق الإنتماء فهو إذا لم يحاول أن يرقى إلى مستوى المثقف النخبوى (الأنتلجنسى) الذى ينتج المعرفة ويحلل ويناقش ويشتغل بالنقد وينير الناس بقضاياهم، ويتجاوز القوالب ويتصور الحلول للمشاكل الاجتماعية والحضارية للبلد، ويضع التصورات النخبوية التى تخرج المجتمع والدولة من دوامة الرؤى البسيطة والآنية إلى أخرى أكثر جوهرية وشمولية واستمرارية وفرضا للنموذج.

وأشكركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

... / ...